Archaeology, Religion, and Politics: The Southern Part of the Levant as a Case Study

Zaidan Kafafi

Abstract

This paper aims at discussing the role played by the Orientalists and the Archaeologists in interpreting the results of their studies to serve their political purposes and to approve the Biblical narratives. In addition, it has been discussed that culture and civilization started in the Orient very much earlier than in the Occident. Examples for this can been obtained from the third millennium literature or legends such as the Gilgamish (Mesopotamia) and Win'moun (Egypt). However, in present days Occident is more advanced in modern and computer sciences rather than the Orient. Thus, Arabs should preserve and learn their inherited tradition, but at the same time, they must long live their time by studying master the modern sciences.

This paper presents a concentrated discussion on the southern part of the Levant, because this part is subjugates under study since the nineteenth century in an attempt to attribute the oriental heritage to other people rather than to the Arabs. Moreover, information concerning the history of the Jew, and the establishment of archaeological centers and schools in Europe and America is mentioned.

This paper recommends of establishing an Arab research school for protecting, studying and presenting the Arab archaeological heritage.

Key Words: antiquity, religion, politics, Bible, Orient, Occident, Holy Land, Maximalist, Minimalists.

ISSN : 1026-9576

DOI : 10.34120/0117-039-156-001

الآثار والدين والسياسة: جنوبي بلاد الشام أنموذجاً

زيدان كفافي

أستاذ، قسم التاريخ، جامعة اليرموك، المملكة الأردنية الهاشمية

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى بيان الدور الذي لعبه الآثاريون والمستشرقون الغربيون في استخدام نتائج تنقيباتهم الأثرية في خدمة مخططاتهم السياسية وإثبات صحة ما جاء في التوراة. وتبين الدراسة أن الحضارة الشرقية سابقة زمنياً الحضارة الغربية، مقدّمة أمثلة على هذا من خلال النصوص الكتابية الأدبية التي عثر عليها في وادي الرافدين (جلجاميش) ومصر (ونأمون)، المؤرخة للألف الثالث والألف الثاني قبل الميلاد. وأما في الوقت الحاضر؛ فإن الثورة المعرفية الرقمية في الغرب تسبق المشرق بخُطاً واسعة، وتسود العالم. وبناء عليه؛ لا بد لهذا الجيل من أبناء الوطن العربي معرفة تراثهم المشرقي، ومعايشة عصرهم في دراسة المعارف والعلوم الحديثة.

تركز هذه الدراسة على منطقة جنوبي بلاد الشام؛ لأن تراثها يخضع منذ القرن التاسع عشر لامتحان هويته، وتجييره لغير أهله، وذلك بتفسيرها المكتشفات الأثرية بحسب ما ورد في التوراة من معلومات. واستعرضت الدراسة تقسيمات التوراتيين للتاريخ اليهودي، وإنشاء المراكز والمدارس الأثرية الغربية، وأهم المواقع الأثرية التي نقبوا فيها في فلسطين. كما تطرقت الدراسة لبعض الباحثين الذين انتقدوا منهج البحث التوراتي.

الكلمات المفتاحية: الآثار، الدين، السياسة ، التوراة، الشرق، الغرب، الأرض المقدسة. التقليديون، المقلّون.

مقدمة

عقد في رحاب جامعة الكويت، بدعوة من قسم التاريخ بكلية الآداب فيها، في الفترة بين 19و20 تشرين الثاني 2019 مؤتمر دولي بعنوان: "الهوية والتراث الثقافي في العالم العربي: الوحدة والتنوع"، وكرمتني اللجنة المنظمة بأن أكون ضيف الشرف على هذا المؤتمر. وخلال يومي الانعقاد استمعت لعدد من المحاضرات المهمة التي قدمها أساتذة وباحثون عرب وأجانب مرموقون في اختصاصاتهم واستمتعت بها، وإن غلب تخصص الأدب العربي على غيره من التخصصات. أما القضية التي ترددت على ألسنة المحاضرين والمناقشين؛ فكانت -على الأغلب- هي مشكلة الحفاظ على الهوية والتراث الثقافي العربي بشكل خاص، وتأثير الحضارة الغربية على حضارة المشرق بشكل عام. ومن ثم طرح تساؤل في المؤتمر، هو: هل سيكون هناك في يوم من الأيام ثقافة عالمية تسود العالم نتيجة لسهولة التواصل والاتصال بين الثقافات العالمية المتعددة؟ أي هل ستذوب الثقافات الفرعية في أتون ثقافة عالمية موحدة؟ وهل يعني هذا – إن تحقق – أن السلوكات الشخصية الشرقية أو الغربية ستسود المشرق والمغرب؟

برأينا أن أبناء هذا العصر في حاجة إلى أن يعيشوا عصرهم، على الرغم من المعطيات التاريخية، علماً أن شمس الثقافة والحضارة والمدنية أشرقت بادئ ذي بدء من المشرق. على أية حال، يتميز المشرق عن المغرب بعمقه التاريخي؛ إذ عرف الناس في وادي النيل والرافدين الكتابة قبل المغرب بآلاف السنين، كما أن الكتابات الأدبية، ويحضرني هنا مثالان هما: جلجاميش (وادي الرافدين)[1] ونأمون (وادي النيل)[2] يعدان دليلين على ما ذهبنا إليه، وهما يعكسان مدى التقدم والحس الأدبي والثقافي لكاتبيهما، في الوقت نفسه كان المغرب يعيش في ظلام ثقافي. وللمقارنة، وإحقاقاً للحق، فإن الوصول إلى الحضارة والمدنية ومعرفة الكتابة في المشرق قد استغرق وقتاً طويلاً جداً، بينما نرى أن الثورة المعرفية الرقمية الغربية تسابق الريح في تطورها، وتتقدم وتتطور بشكل أسرع بكثير جداً عما كان عليه الوضع في المشرق.

وحتى نخرج من هذا الأمر، فإنه لا بد لنا في الوقت المعاصر أن نعيش عصرنا وفق

ما تقتضيه التطورات العلمية والحضارية دون الوقوف جامدين والتغني بالماضي المجيد، وحسب. لكن لا بد من الإفادة من دفء تراثنا وأصالته، وألّا نتخلى عنه. وهذا يعني بالضرورة المزاوجة بين التراث والعلم والمعرفة المعاصرة؛ أي تجنب الصراع بين العقل والروح، ولا يجوز أن نغلق أنفسنا على ماضينا بل أن ننفتح على كل علم ومعرفة جديدة.

وبما أن التراث في جنوبي بلاد الشام – وأقصد هنا في فلسطين والأردن- يخضع منذ نهاية القرن التاسع عشر لامتحان هويته وتجييرها لغير أهلها، اعتماداً على ما ورد من معلومات في الأسفار التوراتية ومحاولة إثبات صحتها بالآثار المكتشفة في هذه المنطقة؛ وذلك لتحقيق أهداف سياسية، وجدنا أنه من واجبنا تسليط الضوء على هذا الموضوع؛ لأن الموروث الأثري يعدُّ وثائق الهوية السياسية والتراثية لأي أمة من الأمم. ولا شك في أن موروثنا الأثري العربي، بمجمله، غني بالمخلفات الأثرية على اختلاف أنواعها وتنوعها، وهي تتعدد بين المنقول والمكتوب والمخطوط.

التراث والتوراة في جنوبي بلاد الشام

دلت المكتشفات الأثرية وبقايا الهياكل العظمية البشرية على أن الإنسان عاش فوق أرض جنوبي بلاد الشام قبل نحو مليون ونصف المليون سنة خلت، وأن المخلّفات التي تركها تنسب لمجموعات بشرية وليس لأعراق أو أجناس؛ وذلك لغياب المصادر المكتوبة المعاصرة لها. لكن الباحثين استطاعوا- بعد فك رموز الكتابات الهيروغليفة الفرعونية والمسمارية الرافدية المؤرخة لأكثر من خمسة آلاف عام، وما تبعها من كتابات سامية أخرى- إعطاء الأثر المكتشف هوية المكان الذي وجد فيه، ونسبته إلى الجنس الذي عاش فيه، ونطق حينها أبناؤه بلغة أو لهجة ما. وباعتقادنا أن النسبة للجنس أو العرق فيها نوع من المجازفة؛ لأن منطقة جنوبي بلاد الشام لم تُسكن عبر الدهر من قبل عرق أو جنس واحد، بل سكنها ولا تزال تسكنها أعراق وأجناس متعددة، تزاوج بعضها مع بعض، وأنتجت نسيجاً اجتماعياً وكيانات سياسية اجتمعت في كثير من الأحيان، لكنها تفرقت في قليل منها، علماً أنها متصلة عرقياً وجغرافياً.

وبما أن الديانات السماوية الثلاث ارتبطت – في كثير من الحالات– بمنطقة المشرق العربي عامة، والأردن وفلسطين خاصة، لذا كانت هذه المنطقة، وما زالت، هي المستهدفة على الدوام من أصحاب هذه الديانات. فعلى سبيل المثال لا الحصر، يروي كتاب العهد القديم قصة خروج النبي إبراهيم –عليه السلام– على أنه رحل عن مدينة أور بجنوبي العراق، ثم مرّ بمدينة حرّان بجنوب شرقي تركيا الحالية، وذهب بعدها إلى مدينة الخليل بفلسطين، ومنها توجه مع زوجته سارة إلى مصر، وبعد أن أقام فترة من الوقت هناك تزوج من جارية مصرية اسمها هاجر إلى جانب زوجته الأصلية سارة. ولم تطق سارة وجود ضرتها الجارية المصرية التي أنجبت ولداً أسمياه إسماعيل إلى جانبها وإلى جانب ابنها إسحق؛ مما اضطر إبراهيم أن يأخذ زوجته هاجر وابنها إسماعيل إلى مدينة "بكة" في الجزيرة العربية ويتركهما في رعاية الله هناك. بعدها عاد إبراهيم مع زوجته سارة إلى فلسطين، وتحديداً إلى مدينة الخليل "حبرون"، وعاش فيها حتى توفاه الله هناك[3]. وتحدد الآية 18 من الأصحاح 15 في سفر التكوين حدود الأرض التي منحها الرب لأبرام ونسله، على النحو الآتي: "في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطي هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات".

وأما القصة التوراتية الثانية، وهي الأهم عند أصحاب الديانة اليهودية؛ فهي قصة خروج اليهود بقيادة سيدنا موسى –عليه السلام– إلى الأرض الموعودة في بلاد كنعان[4] التي ترويها إصحاحات سفر الخروج بإسهاب. وهاتان القصتان كانتا، وما زالتا، في حاجة إلى إثباتات مادية ملموسة، لتدعيم المعلومات الواردة حولهما في الكتب المقدسة، وبخاصة التوراة "كتاب العهد القديم"؛ فقد بحث الآثاريون التوراتيون في المخلفات الأثرية والكتابية الممتدة جغرافياً بين واديي النيل والفرات عن دلائل لإثباتهما. والهدف من هذا التزاوج بين القصة التوراتية والآثار هو إعطاء شرعية لقيام دولة إسرائيل الصهيونية في فلسطين التاريخية.

ليس هذا فقط، وحتى تتصف هذه العملية بالطابع العلمي، اقترح هؤلاء التوراتيون عدداً من المصطلحات والتسميات وأطلقوها على الفترات الزمنية التاريخية، فابتدعوا مصطلح "الكنعانية"، وقد أُطلق على العصور البرونزية الممتدة من نحو 3600 –

1200 قبل الميلاد، ومصطلح "الإسرائيلية" الذي وصف العصر الحديدي الممتد بين نحو 1200و586 قبل الميلاد. كما قسم الباحثون التوراتيون التاريخ اليهودي لعدة مراحل، على النحو الآتي:

1 – مرحلة الآباء (Patriarchal Period): وهي المرحلة المؤرخة بين نحو 2000 و1200 قبل الميلاد، وشهدت ظهور الأنبياء إبراهيم وإسحق ويعقوب وذراريهم. تلتها فترة الإقامة المؤقتة في مصر والخروج منها (Sojourn in Egypt)، والتيه، وآخرها احتلال فلسطين من أهلها الكنعانيين (Conquest).

2 – مرحلة المملكة الموحدة (United Kingdom): وهي المرحلة التي بدأت بحكم شاؤول في نحو 1004 قبل الميلاد، وتبعه داود، ثم ابنه سليمان، وانتهت في نحو 923 قبل الميلاد.

3 – انقسام المملكة الموحدة إلى مملكتين، هما السامرة في الشمال، وقضى عليها الملك الآشوري سرجون في عام 722 قبل الميلاد، ومملكة يهوذا في الجنوب، ودمرها الملك نبوخذنصر الكلداني في عام 586 قبل الميلاد، وسبى أهلها إلى بابل.

4 – فترة سبي اليهود في بابل حتى أعادهم قورش سنة 538 قبل الميلاد[5].

وعليه، جاءت دراساتهم جميعها مقسمة على هذا النحو، مدللة على أن أصل العبرانيين/ الإسرائيليين الأوائل كان مصرياً، وأنهم خرجوا من مصر إلى فلسطين، للأرض التي وعدهم بها الإله يهوه.

وحتى تتم نسبة العبرانيين/ الإسرائيليين إلى عرق محدد، كان لا بد من العودة إلى القصة التوراتية؛ وبناء عليه اخترع مصطلح "ساميّ، ساميّة" من قبل قسم التاريخ بجامعة غوتنغن، الذي كان يرأسه يوهان غوتفريد شلوتزر (Johann Gottfried Schloetzer) ويوهان غوتفريد أيشهورن (Johann Gottfried Eichhorn) في عام 1787 للميلاد[6]. واشتق هذا الاسم من اسم "سام"، أحد أبناء نوح الثلاثة (سام وحام ويافث) الواردة أسماؤهم في سفر التكوين[7]. وقياساً على مصطلح "اللغات الساميّة" وُضع مصطلح "اللغات الحامية". وضمت كل سلالة لغوية مجموعة من اللهجات التي أُلصقت بأقوام مختلفة، لكنهم ربما انتسبوا لجنس أو عرق واحد[8]. من هنا نؤكد ما ذكرناه من

أنه لا يجوز الربط بين اللهجة اللغوية والأثر مع العرق أو الجنس. وللأسف فإن المدرسة التوراتية تنهج هذا المنهج الذي لا يقوم على أي أساس علمي، بل يتمحور حول اعتقادهم أن جميع المعلومات الواردة في كتاب العهد القديم صحيحة، علماً أنها كُتبت بعد مئات السنين من عصر النبي موسى، عليه السلام. وبالفعل هذه هي عكازة الصهيونية العالمية التي تربط بين الآثار والسياسة؛ لتحقيق أهدافها في تشكيل وطن وعرق واحد يعتمد على الدين لأبناء الطائفة اليهودية أينما حلّوا في العالم. وللتثبت من صحة ما جاء في التوراة من معلومات كان لا بد من إجراء حفريات ومسوحات أثرية في المناطق الوارد ذكرها في التوراة، وبخاصة منطقة جنوبي بلاد الشام؛ أي الأرض المقدسة.

التوراة والآثار في جنوبي بلاد الشام

تعرضت فلسطين لعدد كبير من المسوحات والحفريات الأثرية ابتداءً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى الوقت الحاضر، على يد عدد من الباحثين الغربيين، وخاصة التوراتيين منهم؛ بهدف الربط بين الحدث التوراتي والمكان الفلسطيني؛ فجاؤوا إلى فلسطين يحملون المعول بيد والتوراة بيد أخرى. بدأ المنهج التوراتي التقليدي مع إنشاء المدارس والجمعيات الأثرية الغربية؛ بهدف تنظيم العمل الأثري في فلسطين تحديداً، ابتداء من عام 1860م وما بعدها. ويقوم هذا المنهج على تفسير الآثار المكتشفة من خلال القصص المذكورة في التوراة؛ لذا كان لا بد من التنقيب الأثري في مواقع ذُكرت في النصوص التوراتية؛ مثل: القدس، وأريحا، وتل المُتَسِّلم (مَجدّوْ)، وتل وَقَّاص (حازور)، وتل الدُّوير (لاخيش)، والتل (عَي)، وتل بيت مِرْسِم (انظر الخريطة). وبحث المنقبون في هذه المواقع، وبخاصة عن الطبقات المؤرخة للمرحلة الانتقالية بين نهاية العصور البرونزية وبداية الحديدية (نحو 1300 – 1100 قبل الميلاد)، التي يعتقدون أنها دُمرت من قبل الإسرائيليين في أثناء احتلالهم لها من أهلها الكنعانيين. وتزعَّم هذه المدرسة الأمريكي وليم فوكسويل أولبرايت. ومن المعلوم أن أولبرايت في دراسته وتأريخه لمكتشفات حفرياته في موقع تل بيت مرسم الواقع في محافظة الخليل، اعتمد على الاختلاف في أشكال الأواني الفخارية وتطور صناعتها، وربطها مع الطبقات التي وجدت بها[9]، وشاع استخدام منهجه هذا بين التوراتيين الأمريكيين وبعض الأوروبيين.

إن قدسية جنوبي بلاد الشام (الأرض المقدسة) ليست حكراً على أصحاب الديانة اليهودية ، بل هي مقدمة لدى أصحاب المسيحية والإسلامية أيضاً؛ إذ جاء السيد المسيح -عليه السلام- الفلسطيني المولد مخلِّصاً ومعلماً لأبناء شعبه اليهود من تأثير ديانة أولمبوس الإغريقية على ديانتهم، بعد احتلال اليونان ومن بعدهم الروم للمنطقة. وترك لنا تلامذة المسيح كتاب الإنجيل (العهد الجديد) الذي عُدّ مكملاً لكتاب العهد القديم. وكانت الديانة المسيحية التي بدأت سراً ؛ خوفاً من اضطهاد الوثنيين الروم حتى اعترف بها الإمبراطور قسطنطين ديناً رسمياً للدولة في عام 324 للميلاد، ونقل العاصمة من روما إلى بيزنطة (القسطنطينية)، فانعكس هذا الأمر إيجابياً على المنطقة بأكملها؛ إذ زارت والدته هيلانة مدينة إيليا كابيتولينا (القدس)، وأمرت ببناء كنيسة القيامة فيها. من هنا، وبعد السماح باعتناق الديانة المسيحية، دخل معظم سكان جنوبي بلاد الشام هذه الديانة، لكن المنطقة بقيت خاضعة سياسياً لحكم بيزنطة. وإذا ما نظرنا إلى الديانتين اليهودية والمسيحية، نجد أنهما قد خرجتا من رحم الأمة العربية، وأن موسى وعيسى هما من بين ظهرانينا، كما أن أتباعهما هم من أهل هذه البلاد الأصليين.

خريطة تبين أهم المواقع الأثرية التي لها علاقة بالنصوص التوراتية

شهدت نهاية القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر حملة نابليون على مصر، وكان من ضمنها عدد من العلماء والباحثين في دراسة التاريخ والآثار، خاصة في مجال الدراسات الأثرية. وبعدها استطاع جان فرانسوا شامبليون، وهو من أعضاء الحملة، فك رموز حجر الرشيد المكتوب بلغات ثلاث، هي: الهيروغليفية، والديموطيقية، واليونانية، مستعيناً بمعرفته باللغة اليونانية. وباعتقادنا أن هذه الحملة جاءت لتؤكد استمرار الصراع الحضاري بين العالمين الشرقي والغربي الذي بدأ مع قدوم الإسكندر المكدوني في عام 332 قبل الميلاد. وبعد سقوط القدس في عام 63 قبل الميلاد على يد القائد الروماني بومبي، خضعت أجزاء كبيرة من بلاد الأناضول وشرقي البحر المتوسط وشمالي إفريقيا لحكمهم. وفي الوقت ذاته، كان يحكم هذه البلاد عدد من الممالك العربية المحلية؛ مثل المملكتين التدمرية والنبطية في بلاد الشام، ومدينة قرطاج الفنيقية في تونس الحالية. وقد سادت في الفترة الرومية في العالمين الشرقي والغربي الأديان الوثنية، مع وجود عدد قليل من أتباع الديانة اليهودية الذين أعادهم ملكا الفرس قورش وقمبيز في نحو 538 قبل الميلاد إلى فلسطين. ومن نافل القول أن سلالة (حشمونيم) كانت تحكم في منطقة القدس والمناطق المحيطة بها (يهودا) خلال حكم السلوقيين، واستطاعت لفترة قصيرة بين سنتي 140و116 قبل الميلاد الاستقلال عن حكمهم. وبعد انهيار الحكم السلوقي في نحو 110 قبل الميلاد استطاعت هذه الأسرة أن توسع نفوذها إلى مناطق نابلس وجبال الجليل. لكن هذا الأمر لم يستمر طويلاً؛ إذ قضى الروم بقيادة بومبي في عام 63 قبل الميلاد على هذه الأسرة، وأنشأ بدلاً منها كياناً يدين بالولاء للإمبراطورية الرومية، وتم تعيين "هيرودس الكبير" في نحو 40 قبل الميلاد ملكاً عليها. وحاول هذا الملك تأكيد شرعيته في الحكم فتزوج من امرأة اسمها "مريم" من السلالة الحشمونية. وتؤكد المصادر التاريخية المكتوبة العداء المتأصل بين مملكة هيرودس الكبير والمملكة النبطية.

استطاع الإمبراطور الروماني قسطنطين الأكبر الاستيلاء في عام 312 للميلاد على الحكم في روما، وأخذ يشجع على اعتناق الديانة المسيحية. واعترف في عام 324 للميلاد بالديانة المسيحية ديناً رسمياً للدولة الرومية، وتعاظم بعدها اهتمام الغرب بالأرض المقدسة، بخاصة بعد انتشار الديانة المسيحية في مناطق واسعة من الإمبراطورية

الرومية وقيام هيلانة بزيارة القدس وبنائها كنيسة القيامة فيها. نتيجة لهذا، بدأ التنافس بين الديانتين اليهودية والمسيحية، في الوقت نفسه تبنت المجتمعات العربية؛ مثل النبطية والقبائل الغسانية الديانة المسيحية. وبعدها شهد الوجود اليهودي تراجعاً كبيراً، لا يخرج عن كونه قبائل متفرقة هنا وهناك دون أن يكون لها كيان سياسي يجمعها. لكن، في عام 614 للميلاد، استطاع الجيش الفارسي بمؤامرة من اليهود المتبقين في القدس، أن يدخل المدينة، وأن يذبح النصارى فيها ذبح النعاج، وأن يهجر من لم يُقتل منهم إلى خارجها.

اليهود في صدر الإسلام

بعد بزوغ فجر الإسلام وهجرة النبي محمد – صلى الله عليه وسلم– إلى يثرب (المدينة المنورة) في عام 622 للميلاد وجد فيها مجتمعاً يهودياً مكوناً من ثلاث قبائل؛ هي: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، علماً أن الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم– وقع معها اتفاقاً، إلّا أنه سيطر عليها وهجَّرها خارج المدينة تباعاً، على النحو الآتي:

- إجلاء قبيلة بني قينقاع عن المدينة في عام 624 للميلاد، بعد غزوة بدر.
- إجلاء قبيلة بني النضير عن المدينة في عام 625 للميلاد.
- القضاء على قبيلة بني قريظة بعد عودة الرسول من غزوة خيبر.

وقام الرسول بعدها – في عام 628 للميلاد – بغزوة خيبر؛ حيث استطاع السيطرة على المدينة التي كان ساكنوها من اليهود. ونتيجة لهذه الغزوة عقد الرسول اتفاقية مع الجالية اليهودية في المدينة وكانت شروطها مواتية لليهود؛ حيث تزوج من ابنة (حيي بن أخطب)، وانتقل بعدها إلى الرفيق الأعلى في عام 632 للميلاد.

بعد وفاة الرسول –صلى الله عليه وسلم– انتقل الحكم إلى الخلفاء الراشدين، ومن بعدهم إلى الأمويين، وانتشر الإسلام خلال حكمهم في مناطق واسعة من العالم، امتدت من أواسط آسيا في الشرق إلى المحيط الأطلسي في الغرب. ونتيجة لهذا، أخذت الديانة الإسلامية تحل محل الديانتين اليهودية والنصرانية في كثير من بلدان آسيا وإفريقيا.

وهنا بدأ صراع ديني – سياسي للسيطرة على العالم القديم بين أصحاب الديانات السماوية الثلاث. لكن في عام 1258 للميلاد، تعرضت بلاد المسلمين لحملات المغول الذين قضوا على الخلافة العباسية في بغداد؛ فانتقل من بقي على قيد الحياة من العباسيين إلى القاهرة. وقُسّم العالم الإسلامي إلى دول تتصارع بينها، فكانت هناك الممالك الصفوية والفاطمية التي حكمت العالم الإسلامي في القرن العاشر الميلادي. واستمرت الخلافة العباسية في مصر قائمة بالاسم حتى عام 1519 للميلاد عندما اجتاحتها الجيوش العثمانية، فتنازل آخر خلفائها عن لقبه "خليفة المسلمين" لسلطان آل عثمان (سليم الأول) الذي نقل العاصمة من القاهرة إلى القسطنطينية.

الصراع بين أتباع الديانات السماوية على الأرض المقدسة/ الآثار في خدمة السياسة

بعد انتشار الديانتين اليهودية والمسيحية في العالم الغربي، أصبح هناك صراع للسيطرة على منطقة جنوبي بلاد الشام، الأرض المقدسة، بين أهلها أصحاب الحضارة الشرقية (من جميع الديانات) من جهة، والحضارة الغربية من جهة أخرى؛ إذ لم يرق لأوروبا المسيحية أن تكون الأراضي المقدسة، وخاصة مدينة القدس، تحت سيطرة المسلمين، فقامت في الفترة بين 1096 و1291 للميلاد بمجموعة من الحملات والحروب التي سُمّيت باسم "الحروب الصليبية"؛ لأنها كانت ذات طابع ديني. ادّعى القائمون على هذه الحروب أنها جاءت استجابة لدعوة من الإمبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية الشرقية لمساعدتهم على وقف زحف المسلمين السلاجقة في بلاد الأناضول، لكنها كانت في الحقيقة للسيطرة على الأراضي المقدسة ولأمور اقتصادية أخرى. انتهت هذه الحروب بهزيمة الصليبيين في معركة حطين على يد الملك الأيوبي المسلم صلاح الدين. وبعد أن حكم الأيوبيون جنوبي بلاد الشام تبعهم المماليك ثم العثمانيون الذين سيطروا على المنطقة بعد انتصارهم على المماليك في معركة مرج دابق قرب مدينة حلب، التي حدثت في شهر آب من عام 1516م.

لم يقطع العالم الغربي، بعد انتهاء الحروب الصليبية صلاته مع العالم الشرقي؛ إذ واصل عدد من الرحالة والمستكشفين زياراتهم للمنطقة، خاصة الأراضي المقدسة، وتقديم

التقارير حولها للمؤسسات والهيئات الغربية التي مولت رحلاتهم. وما كان هذا ليكون لولا اهتمام العالم الغربي بتثبيت المعلومات الواردة في كتاب التوراة المكون من العهد القديم (التوراة) والعهد الجديد (الإنجيل)، وكأنه يأتي إحياء لعهد الحروب الصليبية. تبع هذا الأمر، في منتصف القرن التاسع عشر، مرحلة الصراع بين النصوص الدينية التوراتية والعلوم البحتة؛ إذ قدم تشارلز داروين نظريته في كتابه "أصل الأنواع"، الذي أبان فيه أن عمر العالم يتعدى 4006 سنوات كما قدره علماء التوراة، وذكر أن هناك بقايا حياتية من نباتية وحيوانية يتعدى عمرها ملايين السنين. من هنا شعر القائمون على الدراسات التوراتية أن تفسيراتهم للنصوص التوراتية غير دقيقة. أدى هذا -بطبيعة الحال - إلى أن يقوم بعض من أهل الديانات السماوية بتكفير داروين ورجمه ووصم من تبع نظريته بالكفر والإلحاد. من هنا نجد أن هناك صداماً حاداً بدأ يظهر مع منتصف القرن التاسع عشر بين العلم والدين؛ فكان لا بد لأهل الكنيسة من أن يجمعوا أنفسهم وأن يردوا بشكل علمي ومنظم على من ينقض المعلومات التوراتية. وحتى يتم لهم ذلك شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر ظهور أمرين مهمين، هما:

1 - تأسيس المدارس والمعاهد الأثرية الغربية: صندوق استكتشاف فلسطين (Palestine Exploration Fund) أسس في عام 1860 للميلاد على يد أساقفة كنيسة كانتربري في إنكلترا. وقد أعلن القائمون عليه أن الهدف من تأسيسه هو إثبات صحة ما جاء في التوراة. وتبع تأسيس هذه المؤسسة تأسيس عدد من المدارس والمعاهد المشابهة في عدد من الدول الأوروبية (ألمانيا وفرنسا)، والأمريكية (الولايات المتحدة الأمريكية).

2 - تم في مدينة بازل السويسرية في عام 1896م انطلاق الحركة الصهيونية، وكان من أهم أهدافها إيجاد وطن قومي لليهود، وتحديداً في فلسطين.

لقد أجرت هذه المدارس خلال الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى حفريات أثرية في عدد من المواقع الأثرية التي ورد ذكرها في التوراة؛ مثل أريحا، وتل المُتَسِّلم (مَجِدّو)، والقدس. لكنهم استخدموا وسائل بسيطة للتنقيب الأثري، كما أن اهتمامهم كان بالقطع

الأثرية المتميزة والثمينة؛ أي حاول المنقبون استخدام المعتقدات الدينية التوراتية وربطها مع الآثار المكتشفة في هذه المواقع.

عودة إلى متابعة الحديث حول تطويع الآثار في خدمة الدين والسياسة؛ إذ قام الباحثون التوراتيون في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية بعدد كبير من التنقيبات والمسوحات الأثرية في مواقع فلسطينية؛ مثل: أريحا، والقدس، وتل المتسلم، وتل بيت مِرْسِم، وذلك بتمويل من مؤسسات علمية يسيطر عليها الفكر التوراتي؛ مثل "المدارس الأمريكية للدراسات الشرقية American Schools of Oriental Research". وكان الهدف الأساسي لهذه المشاريع هو البحث عن المدن الكنعانية التي دمرتها القبائل الإسرائيلية في طريقها وهي خارجة من مصر إلى الأرض الموعودة، التي حددتها التوراة بمنطقة تضم فلسطين الجغرافية ومناطق أخرى مجاورة لها؛ أي أن الدين أصبح مكوناً رئيساً في رسم المستقبل السياسي لفلسطين اعتماداً على ما ورد في النصوص التوراتية، التي حاولوا تثبيت صحتها باكتشافات أثرية، وتفسيرها بالطريقة التي تناسبهم.

تذكر التوراة، أنه بعد أن استقر الأمر للقبائل الإسرائيلية في فلسطين، وزَّعت الأراضي التي احتلتها بالقوة فيما بينها؛ حيث حصلت تسع قبائل ونصف على الأراضي المحتلة في فلسطين، وقبيلتان ونصف على أراضي شرقي نهر الأردن. والقارئ للنصوص التوراتية بهذا الخصوص يتوهم أن أصحاب الأرض الأصليين قد رفعوا الرايات البيضاء واستسلموا للمحتل دون أدنى مقاومة. وكما ذكرنا، مارس الباحثون التوراتيون في هذه المرحلة منهجية تعتمد على الربط بين المكتشفات الأثرية – خاصة تطور أشكال الأواني الفخارية، والقطع الأثرية التي تحمل كتابة – وبين تتابع الطبقات التي تشكل الموقع الأثري. ومؤسس هذه المدرسة ورائدها هو الأمريكي وليم فوكسويل أولبرايت (William Foxwell Albright) الذي نقب خلال ثلاثينيات القرن العشرين في موقع تل بيت مرسم بمنطقة الخليل[10]، ونشر كتاباً له بعنوان: Archaeology of Palestine. ولا يزال كثير من الباحثين الأثريين يتّبعون هذا المنهج في تفسير نتائج حفرياتهم الأثرية.

ويبدو أن وليم فوكسويل أولبرايت اقتسم وتلميذه الأمريكي اليهودي نلسون غلوك Nelson Glueck العمل الأثري في منطقة جنوبي بلاد الشام خلال النصف الأول من القرن العشرين، ركز الأول على فلسطين، بينما قام الثاني بإجراء مسوحات أثرية شاملة للمنطقة الواقعة شرقي نهر الأردن. ونشر غلوك نتائج مسوحاته الأثرية في الأردن في مجلدات نشرها عام 1951للميلاد بعنوان:

Explorations in Eastern Palestine

وعلى الرغم من أن المجلدات قد نشرت بعد حصول الأردن على استقلالها في عام 1946م، فإن هذا الباحث اليهودي أشار إلى الأردن على أنها المنطقة الشرقية لفلسطين.

أصبحت كامل فلسطين تحت الاحتلال الإسرائيلي بعد عام 1967م؛ مما سمح للباحثين الإسرائيليين وغيرهم من التوراتيين في كل العالم للقدوم إلى فلسطين والبحث فيها عن الآثار اليهودية. كما تم التركيز على عدد من المواقع، من أهمها القدس. ورافق هذا، للأسف، مجموعة من الحفريات غير الشرعية التي قام بها مواطنون فلسطينيون للبحث عن آثار يهودية تدر عليهم دخلاً كبيراً؛ أي أن المواطنين الفلسطينيين ساعدوا بطريقة غير مقصودة على البحث مع الإسرائيليين عن دلائل تثبت وجود اليهود على أرض كنعان.

واجه نهج المدرسة التوراتية انتقادات عدة من بعض الباحثين الأجانب؛ مثل، كاثلين كنيون[11]، وهنك فرانكن [12] ورونالد دي فو[13]؛ والعرب، مثل عدنان الحديدي[14] ومعاوية إبراهيم[15] وزيدان كفافي[16]. أما المواجهة الكبرى مع هذا المنهج؛ فكانت بتأسيس مدرسة كوبنهاغن في عام 1994م، التي تحذِّر من الاتكاء الكلي على الأحداث التوراتية في تفسير الآثار المكتشفة، ومن أعلامها توماس طومسون وفيليب ديفيس ونيلز لمكه. كذلك لاحظ التوراتيون أن هذا المنهج البحثي قد فشل في تحقيق الأهداف التي قام لأجلها، وبناء عليه؛ كان لا بد من إيجاد منهج جديد مقنع علمياً يحقق أهداف الصهيونية العالمية. وفي نظرنا أن إسرائيل فنكلشتاين هو من بدأ الخطوة الأولى في هذا الاتجاه، فأجرى بعد حرب عام 1967م مسوحات أثرية في منطقة الضفة الغربية محاولاً العثور

على أماكن الاستيطان اليهودية؛ لعلمه أن منهج وليم أولبرايت لم يعد يفيد في إثبات صحة الروايات التوراتية[17]؛ إذ تقول أسفار العهد القديم : إن طبيعة الاستقرار في منطقة جنوبي بلاد الشام تحولت خلال نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد (أي زمن الخروج) من المدينة إلى القرية والمخيم، وأن الناس تحولوا من سكان مدن إلى بداة ورعاة؛ أي أنصاف مستقرين. من هنا نجد أن أصحاب هذه المدرسة يبحثون عن مواقع ينطبق عليها الوصف التوراتي، دون الالتفات كثيراً إلى المادة الأثرية المكتشفة فيها. ولتحقيق هذه الغاية، أجرى مباشرة بعد حرب حزيران في عام 1967م مسوحات أثرية في مناطق متعددة من فلسطين، ونشر نتائجها في كتاب عنوانه :

Finkelstein، Israel 1988؛ **The Archaeology of the Israelite Settlement**. Jerusalem : Israel Exploration Society.

ونقتبس أدناه ما ذكره فنكلشتاين حول منهج طبيعة المواقع الأثرية :

"The Settlement of the Israelites in the 12th and 11th centuries BCE, and their transformation from a society of isolated tribes into an organized kingdom, is one of the most exciting, inspiring, and at the same time controversial chapters in the history of the Land of Israel "[18].

ومن نافل القول أن فنكلشتاين أدرج أجزاء من الأردن في دراسته هذه، واعتبرها جزءاً من إسرائيل القديمة[19].

الآثار والتراث والسياسة في العقود الثلاثة الأخيرة

شهد عام 1994 للميلاد تحولات سياسية وعلمية على الساحة العربية- الإسرائيلية بخصوص الدراسات التوراتية. فعلى الصعيد السياسي، تبعت المصالحة الإسرائيلية- المصرية التي جاءت نتيجة لمباحثات كامب ديفيد في عام 1978م، اتفاقيتان، الأولى : اتفاقية أوسلو بين الفلسطينيين والإسرائيليين، والثانية اتفاقية وادي عربة بين الأردن وإسرائيل. وأما على صعيد البحث التوراتي؛ فقد تشكلت في كوبنهاغن/ الدنمارك مدرسة أسسها مجموعة من العلماء التوراتيين على رأسهم توماس طومبسون (Thomas

(Thompson وفيليب ديفيس (Philip Davis) أطلقوا على أنفسهم اسم : Revisionists or Minimalists إضافة إلى بعض العلماء الإسرائيليين، ومن بينهم إسرائيل فنكلشتاين. وقد نادت هذه المدرسة بعدم الاعتماد الكلي على النصوص التوراتية في تفسير الآثار. وعلماً أن هؤلاء، بنظرنا، لم يخرجوا من تحت العباءة التوراتية، فإن العرب هللوا وكبروا لهم، وهم في طرحهم هذا جنحوا لتحقيق أهدافهم بطريقة ذكية جداً ترضي العرب بالقول: إن القدس لم تكن ذات أهمية سياسية خلال القرن العاشر قبل الميلاد. لكنَّ هذا الأمر لم يصل بهم إلى نتيجة إيجابية، فخرج علينا في عام 1994م نفر من الباحثين، ومنهم من يعتنق اليهودية أو يتبناها، بمنهج جديد ينادي بعدم اعتماد القصص التوراتية أساساً لدراسة التاريخ اليهودي القديم؛ لأنها كُتبت في فترة متأخرة جداً عن نزولها على سيدنا موسى، عليه السلام. وعلى أية حال، فإننا نرى أن كلتا المدرستين تسعى إلى خدمة الهدف الصهيوني المعلن، وهو: "الحق التاريخي لليهود في فلسطين". ووقف إلى جانب هذا الرأي عدد من الباحثين الإسرائيليين، على رأسهم (إسرائيل فنكلشتاين). وهذا الأمر استفز الباحثين التوراتيين التقليديين (Maximalists)، الذين سمّوا التوراتيين المحدثين بأسماء(Revisionists) و (Minimalists)، وترجمها محمود أبو طالب[20] بأسماء عدة: (تفكيكيون، ومحرفون، وراديكاليون). وكانت تسمية "الراديكاليين" قد أُطلقت على المعارضين من الباحثين الألمان والفرنسيين للمنهج التوراتي التقليدي[21]. ومن الجدير بالذكر، أنه على الرغم من أن منتسبي هذا المنهج أو المدرسة، يدعون بأنهم خرجوا من تحت عباءة التوراة، فإننا نرى غير ذلك[22].

ونذكر في هذا الصدد ما قاله صامويل هانتنغتون في محاضرة له ألقاها في في عام 1992م ثم نشرها في مقالة عنوانها : American Enterprise Institute

Huntington, Samuel, P. 1993; The Clash of Civilizations? Foreign Affairs Vol. 72, No. 3: 22-49. https://www.jstor.org/stable/20045621

إن الصراع الأممي في أساسه سيتحول بعد انتهاء الحرب الباردة من صراع بين بلدان في معسكرين شرقي وغربي إلى صراع ثقافي مبني على اختلاف المعتقدات الدينية. وبعدها طور هانتنغتون مقالته هذه إلى كتاب نشره في عام 1996م تحت عنوان :

Huntington, Samuel, P. 1996; The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order. Washington: Simon & Schuster.

ولو نظرنا إلى ما نحن فيه الآن في منطقتنا العربية بشكل خاصة، والعالم عامة، لوجدنا أننا نطبق ما قاله ونشره هانتنغتون بالحرف.

أما فيما يخص الأردن، فقد نشر في عام 2000 للميلاد كتاباً عنوانه: The Archaeology of Jordan بمشاركة عدد من المؤلفين والباحثين الذين نقبوا في مواقع أثرية أردنية. وجاء الفصل الذي يتحدث عن الأردن في العصر الحديدي (نحو 1200 – 586 قبل الميلاد) يحمل معلومات تشير إلى وصف بعض المواقع والمناطق بأنها إسرائيلية. وحدث أنني التقيت أحد مؤلفي هذا الفصل في عام 2002 في مؤتمر بتورنتو بكندا وتحاورت معه حول ما نشر في هذا الفصل، وقال لي بالحرف الواحد: "نقلت هذا الكلام عن نص حجر ميشع"؛ فأجبته: "إن الملك المؤآبي ميشع يقول إنه قد طرد المحتل الإسرائيلي من بلاده، والمحتل ليس صاحب مكان"؛ فأومأ برأسه موافقاً، وكتب لمحرري الكتاب بحذف هذه المسميات من الطبعات الجديدة للكتاب، وهذا ما كان.

إضافة إلى هذا الأمر، فقد نقب فريق من جامعة سان دييغو الأمريكية، وهم على درجة عالية من المقدرة والكفاءة العلمية، ويمتلكون معدات ووسائل علمية متقدمة عن منطقة وادي فينان بحثاً عن بقايا أثرية ودراسة لمناجم النحاس القديمة فيها. ونشر هذا الفريق نتائج أبحاثه في عدد من المجلات العلمية العالمية المعروفة، لكن ما أشار إلى سوء نواياهم هو تقرير نشر على u–Tube يقول فيه المشرفون على المشروع: إن مناجم النحاس هذه تخص الملك سليمان. ومن هنا وجدت من واجبي التحري حول هذه المعلومة، فنشرت بحثاً عنها أدحض فيه ما نشر، عنوانه:

Kafafi, Zeidan 2014, New Insights on the Copper Mines of Wadi Faynan/ Jordan. Palestine Exploration Quarterly 146/4: 263-280.

وبعد نشر البحث رد أحد أعضاء الفريق الأمريكي على ما نشرت، وأكتفي بكتابة عنوان رده أدناه:

Najjar, Muhammad 2015; Solomonic Phobia or 10th Century BCE Phobia? Response to Zeidan A. Kafafi, "New Insights on the Copper Mines of Wadi Faynan/Jordan, PEQ 146.4 (2014), 263-80. Palestine Exploration Quarterly 147/3: 247-253.

وأكثر من هذا، تذكر النصوص التوراتية أن منطقة جلعاد الواقعة شرقي النهر كانت جزءاً من مملكة إسرائيل القديمة. وتضم هذه المنطقة الممتدة بين البلقاء في الجنوب ونهر اليرموك في الشمال عدداً كبيراً من المواقع الأثرية، منها موقع يقع في لواء الرمثا بالقرب من جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية اسمه (تل الرميث)، يعتقد الباحثون التوراتيون أنه ربما يكون موقع (رموت هجلعاد) الوارد ذكره في التوراة. ولأهمية الموقع، نقب الآثاري الأمريكي بول لاب (Paul Lapp) عنه في بداية ستينيات القرن الفائت، وخرج برأي مفاده أن الموقع آرامي وتبع لمملكة دمشق الآرامية خلال العصر الحديدي الثاني (نحو 1000 – 586 قبل الميلاد). وفي عام 2011م زار الموقع آثاريون إسرائيليون، وكتبوا إثر ذلك مقالة عنوانها :

Finkelstein, I. et al. 2013; Tell Rumeith in Northern Jordan: Some Archaeological and Historical Observations. Semitica 55: 7-23.

ذكروا فيها أن تل الرميث كان جزءاً من منطقة جلعاد التابعة لمملكة إسرائيل، وليس لآرام دمشق كما ذكر المنقب الأصلي للموقع. ولما كان الأمر كذلك، وبما أن ما نشره الإسرائيليون جاء نتيجة لزيارة عابرة ولم يعتمد على أي منطق علمي، فقد كتبت مقالة رداً على هذا الادعاء عنوانها :

Kafafi, Z. 2017; North Jordan During the Early Iron Age: An Historical and Archaeological Synthesis. Walking Through Jordan. Essays in Honor of Burton MacDonald. Pp. 63-77. Sheffield: Equinox Publishing.

طغى في عام 2011 للميلاد على الشارع الأردني عامة، والأثري خاصة، موضوع الدفاتر الرصاصية المكتوبة على ورق معدني (الرصاص أو النحاس)، والتي عُرفت باسم

(Codices)، وأُرخت -بحسب رأي بعض الباحثين- لزمن السيد المسيح، وقيل إنها مكتوبة بخط عبري؛ أي أنها تخص طائفة يهودية سكنت شمالي مدينة إربد بالقرب من بلدة سحم. وانقسم الرأي الأكاديمي الأردني بين قائل إنها أصلية، وآخر بأنها مزيفة، وشكلت لجنة علمية (مركز) لدراستها في جامعة مانشستر البريطانية. ولفض هذا الاشتباك العلمي شكلت دائرة الآثار العامة الأردنية لجنة من عدد من المختصين لدراستها، أعلنوا أنها غير أصلية، بل مزيفة. وبنظرنا لو أن ادعاء أصحاب القول بأصالتها وصحة النصوص المكتوبة بها هذه الدفاتر كان صحيحاً لكان هذا إثباتاً تبحث عنه الصهيونية العالمية على أن اليهود القدامى كان لهم موطن بشمالي الأردن.

وأخيراً، انشغل الشارع الأردني مع بداية شهر آب (2019) بحادثة اقتحام مجموعة من اليهود الإسرائيليين لمقام النبي هارون في البتراء عنوة، للصلاة فيه. وبرأينا أن هذه الحادثة لن تكون آخر المطاف لتأكيد وجود اليهود في شرقي نهر الأردن، بل ستتبعها في المستقبل محاولات أخرى. وللوقوف في وجه هذه الحملات التي تعتمد في رأيها على النصوص التوراتية والبقايا الأثرية لا بد من رأي علمي يقابل الحجة بالحجة، ويكفينا عنترة وتهويشاً. ويجب علينا توجيه مجموعة من الأسئلة ومحاولة الإجابة عنها، منها، من اليهود الأوائل؛ أي أتباع النبي موسى؟ وهل خرج جميعهم من مصر؟ ومن الإله (إلههم) الذي وعدهم بالأرض المقدسة (يهوه أم إلوهيم)؟ وما حدود الأرض الموعودة؟ وكيف عرف الناس أن مقام النبي هارون في البتراء هو قبره؟

وللإجابة عن بعض هذه الأسئلة يجب علينا الإقرار بأن الكتب الدينية السماوية تعترف بالخروج، لكن هل كان هذا الخروج بالصورة نفسها التي رسمتها التوراة؟ على الأقل من ناحية العدد الكبير (600 ألف شخص خرجوا من مصر...!!). كما أننا نلفت النظر إلى أن حادثة الخروج لم تذكر في أي نص تاريخي، حتى الفرعوني منها، وأن أول ذكر لكلمة "إسرائيل" في المصادر التاريخية جاء على مسلة الفرعون المصري مرنبتاح (نحو 1207 قبل الميلاد)، والكلمة تعود إلى شعب وليس إلى أرض. كما أن بعض العلماء الغربيين يشككون بأن السطرين الأخيرين من الكتابة الموجودة على المسلة، وتضم كلمة إسرائيل، قد أضيفت في مرحلة لاحقة؛ لأن موضوع المسلة يتحدث عن

انتصار الفرعون المصري على القبائل الليبية في غربي مصر. ونضيف هنا أيضاً، أنه مع عدم معرفتنا للإله الذي وعد الخارجين من مصر بالأرض الموعودة، فإن هذا الجيل الموعود بالأرض لم يدخلها لمرور أكثر من أربعين عاماً على التيه وضياعهم في سيناء، ولهذا، على الأغلب، أن يكونوا قد قضوا، حتى لو افترضنا صحة قصة الخروج. ومن يريد معرفة رأينا بهذا الخصوص عليه مراجعة بحثنا المنشور عام 2019م في مجلة أدوماتو التي تصدر عن (مركز عبد الرحمن السديري) بالرياض [23].

إجابة عن السؤال : هل مقام هارون في البتراء هو قبر النبي هارون أخي النبي موسى؟ نعلم أنه في أثناء سيطرة الصليبيين على بلاد الشام، ومحاولة الأيوبيين طردهم من الأرض المقدسة، أجج ملوك الأيوبيين ومن تبعهم من المماليك الوازع الديني لدى أهل المنطقة ببناء المقامات والأضرحة لأولياء الله. وأوقف هؤلاء التبرعات والنذور التي تقدم لمقامات الأولياء الصالحين لصالح المجهود العسكري، وخاصة تحرير القدس، وهذا ما كان. إذن. فإن من أعطى أسماء لهذه المقامات هم المسلمون، ومن هنا نرى أنهم يزورونها سنوياً وبشكل منتظم ويذبحون الأضاحي عندها. وهل نتناسى كيف يحتفل الناس سنوياً بموسم للنبي موسى كان ينطلق من القدس باتجاه مقامه بالقرب من أريحا في منطقة غربي البحر الميت. من هنا نرى أن المكتشفات الأثرية شكلت دلائل ووثائق تقدم للعالم على أنها إثباتات لحق مزعوم في أرض ليس للمدّعين حق فيها. وقد تم التشكيك من قبل كثير من الباحثين في هذا المنهج؛ مما اضطر الصهاينة إلى ليّ الحقيقة في كثير من الأحيان بتغير هوية الأثر، أو حتى تزوير الآثار.

وحتى تكتمل الصورة عند الباحثين التوراتيين أصبح لا بد من البحث عن مصادر مكتوبة تتحدث أو حتى تذكر اسم إسرائيل أو العبرانيين أو أحد ملوكهم. ومن المعلوم أن كتاب العهد القديم كان (ولا يزال عند بعضهم) حتى منتصف القرن التاسع عشر، هو المخطوط الوحيد المتوافر لدراسة تاريخ العبرانيين الأجداد، ودولة شاؤول الإسرائيلية، ودولتي إسرائيل ويهوذا. وبما أن دولة إسرائيل الأولى قامت فوق الجزء الجنوبي الغربي لبلاد الشام، فإنها كانت على الدوام على تماس مع الأحداث التي كانت تجري في البلدان المحيطة بها، خاصة مصر وبلاد الرافدين. وبناء عليه؛ نجد الدارسين بحثوا في الوثائق

والكتابات التي عُثر عليها في وادي النيل ووادي الرافدين وبلاد الشام للعثور على معلومة حول التاريخ الإسرائيلي القديم. ونقدم موجزاً حول هذه الوثائق المكتوبة.

تتصل منطقة جنوبي بلاد الشام مع مصر جغرافياً عن طريق سيناء التي عبرتها الخطوط التجارية بين المنطقتين منذ منتصف الألف الرابع قبل الميلاد[24]، كما أن المنطقة الواقعة إلى الجنوب من حلب وقعت خلال الفترة بين نحو 1550و1200 قبل الميلاد تحت السيطرة المصرية، وكانت جزءاً لا يتجزأ من أملاك الفرعونية المصرية. لذا، فقد أسهبت المصادر الفرعونية المكتوبة بالحديث عن منطقة بلاد الشام خلال هذه الفترة، وبخاصة الحملات الفرعونية عليها. لكنْ، بعد سقوط الدولة الحديثة في نحو 1200 قبل الميلاد، تمكنت قوى سياسية محلية في بلاد الشام من تكوين ممالك لها؛ مثل الدول الآرامية، والفنيقية، والعمونية والمؤآبية والأدومية، والإسرائيلية. وعلى الرغم من هذا التغير السياسي وانزياح السيطرة المصرية عن بلاد الشام، فإننا نجد أن المصادر الفرعونية المصرية، المؤرخة لبداية العصر الحديدي ، لم تتحدث من قريب أو من بعيد عن مملكة إسرائيل الأولى ولا عن مملكتي إسرائيل ويهوذا بالاسم (نحو 1200 923– قبل الميلاد)؛ علماً أنها ذكرت أسماء بعض المدن الواقعة فيهما. وعلى أية حال ، فإن أقدم ذكر لهذه المنطقة، خلال هذه الفترة، جاء من زمن الفرعون المصري شيشنق (نحو 945 – 924 ق. م.) ذي الأصول الليبية، حين عدَّد أسماء مدن آسيوية تغلب عليها في حملة قام بها على منطقة جنوبي بلاد الشام، ولم يأت على ذكر كلمة "إسرائيل"[25].

لكن من أهم الكتابات المؤرخة للفترة السابقة لتشكيل دولة إسرائيل التي أتت على ذكر كلمة "إسرائيل" مسلة الفرعون المصري مرنبتاح (1213 – 1204 ق. م)؛ حيث نشر الباحث الألماني فيلهلم شبيغلبيرغ (Wilhelm Spiegelberg) في عام 1896 تفسيراً للكتابة المنقوشة على سطح المسلة، وفسرها على أنها تخلد انتصارات الفرعون المصري مرنبتاح على الليبيين[26]. ومن بين المعلومات الواردة في هذه الكتابة ذكر لإسرائيل شعباً وليس أرضاً[27]. وبناء عليه؛ حاول بعض الباحثين الربط بين هذا النص وحادثة الخروج من مصر. وبما أن النص يقول: إن الحملة على ليبيا حدثت في السنة الخامسة من حكم مرنبتاح، فإنهم يرون أن خروج بني إسرائيل تم في عام 1225 ق. م. ويرى آخرون أن

المعلومات الواردة في هذه المسلة لا تخرج عن كونها تقدم معلومات عن مجموعة بشرية كانت في المنطقة خلال نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، لا أكثر ولا أقل. كما يشككون بمصداقية حدوث حملة عسكرية قام بها مرنبتاح في هذا الوقت على آسيا؛ لأنّ الأسطر التي تتحدث حول الموضوع جاءت على شكل حاشية للنص وليست ضمنه[28]؛ أي أنها ربما أضيفت في وقت لاحق.

ومن الوثائق الفرعونية المكتوبة رسائل تل العمارنة المرسلة من أمراء المدن السورية وحكامها في الفترة الواقعة بين نحو 1400 و1350 قبل الميلاد إلى فراعنة مصر؛ إذ حاول بعض الباحثين الربط بين اسم "عابيرو/ خابيرو" الوارد فيها والعبرانيين[29]؛ علماً أن من العلماء من يرفض هذا الربط؛ اعتماداً على أن اسم "خابيرو" ورد في سجلات حثية في آسيا الصغرى وفي مدينة سوسة/ عاصمة العيلاميين في بلاد فارس؛ أي أنه انتشر فوق منطقة أوسع من فلسطين، ولذا لا يمكن ربطهم بالعبرانيين[30].

ومن نافل القول أن المصادر المكتوبة الرافدية، وبخاصة الآشورية والبابلية، سواء القديمة أو الحديثة، لم تأت على ذكر "إسرائيل" بكتابة اسم "مملكة إسرائيل" بل "بيت عَمْري" أو "السامرة"، لكن اسم مملكة "يهوذا" أتى على شكل "مملكة يهوذا" وليس "بيت داود". ومما يجب ذكره أن هناك نصاً واحداً يعود إلى السنة السادسة من حكم الملك الآشوري شلمنصر الثالث (نحو 858–823 ق. م) يصف فيه انتصاره على تحالف عدد من ملوك بلاد الشام، من بينهم الملك آحاب الذي وصفه "بالإسرائيلي"، الذي تبرع بألفي عربة قتال وعشرة آلاف مقاتل راجل للقتال إلى جانب التحالف[31]. كذلك تذكر "المسلة السوداء (Black Obelisk) المؤرخة لسنة 830 ق. م؛ أي زمن حكم الملك الآشوري شلمنصر الثالث، اسم الملك "يهوه بن عمري" من بين دافعي الجزية له[32].

أما خلال حكم الملك الآشوري أدد-نيراري الثالث (810–783 ق. م)؛ فنجده يذكر في حولياته اسم "بيت عَمْري" بصفته جزءاً من أملاك مملكته التي ضمت عدة ممالك شامية أخرى، مثل، صور وصيدا، وإدوم، وفلسطين[33]. كما توالى ذكر "السامرة" و"بيت عمري" في سجلات الملوك تيجلات بيلاصر الثالث (744–727

ق. م)، وسرجون الثاني (721–705 ق. م)، ونجد أن الأخير يفرق بين "مملكة السامرة" و"بيت عَمْري"[34]. من هنا يظهر لنا أن الآشوريين لم يطلقوا على المملكة الشمالية اسم "إسرائيل" وإنما "بيت عَمْري" وعاصمتها "السامرة"[35].

ذُكرت مملكة "يهوذا" وأسماء ملوكها في السجلات الرسمية الآشورية بين أسماء ممالك وملوك آخرين حكموا عدداً من ممالك سوريا وكليكيا وفنيقيا وفلسطين والأردن، ونضرب مثالاً على هذا من زمن الملك الآشوري سنحاريب الذي حاصر القدس عام 701 ق. م[36]. وخلال حكم الدولة البابلية الحديثة "الكلدية"، نجد الملك نبوخذنصر يذكر في سجلاته أنه حاصر مدينة "يهوذا" وتغلب عليها، ونهبها ونصّب عليها ملكاً موالياً له.

ومن هنا نستطيع القول: إن الوثائق والكتابات الآشورية والبابلية الحديثة لا تساعد كثيراً في دراسة أحوال سكان جنوب غربي بلاد الشام؛ إذ إنها، للأسف، لم تشر على الإطلاق إلى التركيبة السكانية للمنطقة والأعراق التي سكنتها، بل اهتمت بتسجيل انتصارات ممالك وادي الرافدين على الأقطار المجاورة وإخضاعها لحكمهم.

عُثر خلال العقود الماضية على نقوش وكتابات رأى بعض الباحثين أن لها علاقة مباشرة بتاريخ دولة إسرائيل القديمة واليهود القدماء، منها "نقش تل القاضي" (دان) من شمالي فلسطين، و"مسلة الملك المؤآبي ميشع"، التي عُثر عليها في مدينة ذيبان في وسط الأردن، و"نقش سلوان"/ القدس.

يقع تل القاضي في أسفل المنحدر الجنوبي لجبل الشيخ في منطقة تربط جبال الجولان/ سوريا ومزارع شبعا/ لبنان وشمالي سهل الحولة في فلسطين. وبدأت بعثة أثرية إسرائيلية أعمال التنقيب فيه ابتداء من عام 1966م، بإشراف أفراهام بيران، ومن أهم ما كشفت عنه البعثة الإسرائيلية بقيادة أفراهام بيران[37] في هذا الموقع ثلاث كسر، تمثل أجزاء من مسلة مصنوعة من الحجر البازلتي، وجدت مكسّرة ومتفرقة في أماكن متباعدة في الموقع، الكبيرة منها عُثر عليها خلال موسم حفريات عام 1993م في بناء الوجه الخارجي لأحد جدران المدينة بالقرب من البوابة الجنوبية، المؤرخ لمنتصف القرن التاسع قبل الميلاد، وعلى كسرتين صغيرتين عام 1994[38]. ويشكك بعض الباحثين فيما إذا كانت هذه الكسر

الثلاث تخص مسلة حجرية واحدة، ويعتقدون أنها – في الأصل– تخص نقشين[39]. والنص على الكسر الثلاث منقوش بالخط الآرامي، ويجادل المنقب أفراهام بيران أن المسلة تنسب لأحد ملوك مملكة دمشق الآرامية الذي حارب تحالف إسرائيل وبيت داود (يهوذا) خلال القرن التاسع قبل الميلاد وانتصر عليهما. ويشكك بعض الباحثين في تاريخ النقش وأصالته، بل هناك من يؤكد أنه مزوّر[40].

ويعدّ نقش ميشع الذي يخلد انتصار الملك المؤآبي على آحاب بن عمري ملك إسرائيل من الوثائق التاريخية المؤرخة لمنتصف القرن التاسع قبل الميلاد، التي أتت على ذكر إسرائيل. ويذكر النقش أيضاً أن الملك ميشع استطاع أن يطرد المحتل الإسرائيلي من أرضه بعد احتلال دام أربعين عاماً، كما أنه يذكر عدداً من أسماء الأعلام والأماكن والآلهة الوارد ذكرها في التوراة[41].

ومن النقوش المنسوبة لزمن ملك يهوذا "حزقيا"، نقش احتفالي حُفر في نفق واصل بين عين أم الدرج وبركة سلوان في الوقت الذي هاجمه الملك الآشوري سنحاريب في نحو 701 قبل الميلاد[42]. ويذكر الكاتب أن مجموعتين من العمال كانتا تحفران داخل النفق، فسمع بعضهم ضرب معاول بعض وهم يقتربون من إكمال فتح النفق أو القناة[43]. ويعتقد الباحث نيلز لمكه[44] أن تأريخ النقش لا يمكن البت به؛ لأنه لا توجد إثباتات علمية تدل على أنه كتب في زمن الملك حزقيا، وأن النقش يجب أن يعامل بوصفه مصدراً ثانوياً وليس أساسياً عند دراسة دولة إسرائيل.

الخاتمة

خاتمة القول عن العبرانيين/ الإسرائيليين في المصادر المكتوبة القديمة: إن هذه المصادر لا تقدم معلومات مفصلة عنهم ولا تقدمهم بوصفهم عرقاً منفصلاً. كذلك فإن تاريخ إسرائيل الموحدة لا يتعدى السبعين عاماً بكثير، وحتى مملكتي إسرائيل ويهوذا لم تعمرا طويلاً. على أية حال، فإننا نرى أن الإسرائيليين الأوائل هم من تحت عباءة السكان المحليين لمنطقة بلاد الشام.

ونتساءل في نهاية الأمر، من اليهود الأوائل؛ أي أتباع النبي موسى؟ وبما أننا

مسلمون نعترف بالديانات السماوية الثلاث، وأن الدين الإسلامي جاء مكملاً للديانتين اليهودية والنصرانية، فإن أتباع موسى هم من بين ظهرانينا، من أهل هذه المنطقة ولا علاقة لهم بصهاينة هذه الأيام المحتلين لأرضنا العربية، واقتصر دورهم على تأسيس دولة لهم، لم تعمر طويلاً في فلسطين كغيرها من دول المنطقة. ويجب أن نعترف بقصورنا وضعفنا أمام الإمكانات المادية والعلمية والقوة العالمية للصهيونية وقدرتها على قلب الأمور وتزييف التاريخ ومصادرته. لكن الأهم من هذا، وأفضل رد عليه هو تضافر الجهود، والوحدة الوطنية التي تتشابك فيها الأيدي وتتلاحم فيها الأجساد خدمة لترابنا وتراثنا العربي الغالي.

الهوامش والمراجع

(1) - Kramer, S. N.: Sumerian Myths and Epic Tales, Pritchard, James (ed.), **Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament,** 3rd Edition with Supplement, 1969, pp. 47-52. Princeton: Princeton University Press

(2) - Wilson, J. A.: Egyptian Myths, Tales and Mortuary Texts, James Pritchard (ed.), **Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament.** Princeton: Princeton University Press, 1969, pp.25- 29.

(3) التكوين 11: 29-32؛ 12: 1-20؛ 13: 1-18؛ 14: 1-24؛ 15: 1-21.

(4) الخروج 3 : 1–22 .

(5) - Lemche, N. P.: Hebrew. P 95 in D. N. Freedman (ed.), **Anchor Bible Dictionary, Vol. 3.** New York: Doubleday, 1992a, p. 530.

(6) - Vermeulen, Han F.: The German Invention of Voelkerkunde: Ethnological Discourse in Europe and Asia 1740 – 1798, Eigen, Sara and Larrimore, Mark (eds.); **The German Invention of Race,** Albany: State University of New York Press, 2006, p.130.

(7) التكوين 5: 32؛ 10: 1-32.

(8) بوكلمان، كارل: **فقه اللغات الساميّة. رمضان** عبد التواب (مترجم)، الرياض: جامعة الرياض، 1977، ص11 – 34 .

(9) - Albright, W. F.: "Excavations of Tell Beit Mirsim II: The Bronze Age", **Annual of the American Schools of Oriental Research** 17. New Haven, 1938.

(10) - "Excavations of Tell Beit Mirsim II: The Bronze Age".

(11) - Kenyon, Kathleen: **Archaeology and Old Testament,** in D. Winton Thomas, 1967, p. 273.

- Franken, Henk, J.: "The Other Side of Jordan", **Annual of the Department of Antiquities of Jordan** XV, 1970, p. 8. (12)
- De Vaux, Roland: On Right and Wrong Uses of Archaeology, James Sanders (ed.), **Near Eastern Archaeology in the Twentieth Century,** New York, 1970, p.66. (13)

(14) الحديدي، عدنان: "الآثار في خدمة السياسة"، **حولية دائرة الآثار العامة الأردنية،** العدد 22، 1977 – 1978، ص6–11.

(15) إبراهيم، معاوية: **دراسات في آثار فلسطين،** عمان: جامعة فيلادلفيا، 2009، ص18.

(16) **كفافي،** زيدان: **المدخل إلى علم الآثار،** إربد: مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، 2004، ص27–35.

- Finkelstein, Israel: **The Archaeology of the Israelite Settlement,** Jerusalem: Israel Exploration Society, 1988. (17)
- The Archaeology of the Israelite Settlement, p.15. (18)
- The Archaeology of the Israelite Settlement, pp.112-117. (19)

(20) أبو طالب، محمود: **من السلط إلى القدس، أبحاث في تاريخ الأردن وفلسطين القديم،** ترجمة وتحرير: عمر الغول وعفاف زيادة، عمّان: المقتبس، 2006، ص167.

- Lemche, N. P.: **The Israelites in History and Tradition,** London: Westminster John Knox Press,1998, p.58. (21)

(22) كفافي، زيدان: **بلاد الشام في العصور القديمة: من عصور ما قبل التاريخ حتى الاسكندر المكدوني،** عمّان: دار الشروق. 2011.

(23) كفافي، زيدان: "فلسطين خلال العصر الحديدي الأول (1200 - 1000 ق.م.). دراسة مقارنة بين الروايات التوراتية والبيانات الأثرية"، أدوماتو 39. الرياض: مركز عبد الرحمن السديري، 2019، ص ص 7 – 28.

(24) كفافي، زيدان: **علاقات مصر التجارية مع جنوبي بلاد الشام خلال الألف الرابع والنصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد، في أعمال المؤتمر الدولي الأول "مصر ودول البحر المتوسط عبر العصور" 15 - 18** أكتوبر **2014**، تحرير: جمعة عبد المقصود ومحمد حمزة، القاهرة: جامعة القاهرة، 2014، ص106 – 128.

- Simons, J.: **Handbook for the Study of the Egyptian Topographical Lists Relating to Western Asia.** Leiden: E. J. Brill ,1937; Hermann, S.: Operationen Pharao Schoschenks I. Im östlischen Ephraim. **Zeitschrift des Deutschen Palästine-Vereins** 80, 1964, pp.55-79. (25)
- Spiegelberg, W.: Der Siegeshymnus des Merneptah auf der Flinders Petrie-Stele. **Zeitschrift für ägptischen sprache und Altertumskunde** 34, 1896, pp.1-25. (26)
- Egyptian Myths, Tales and Mortuary Texts, p.378. (27)

- The Israelites in History and Tradition, p.36. (28)
- Loretz, O.: **Habiru-Hebraer: Eine sozio-lingistische Studie über Herkunft des Gentiliziums** (29)
  'ibrî vom Appellativum habiru. Berlin: Walter de Gruyter, 1984.
- The Israelites in History and Tradition, p.59. (30)
- Oppenheim, Leo. A.: Babylonian and Assyrian Historical Texts, James Pritchard (ed.), **Ancient** (31)
  Near Eastern Texts Relating to the Old Testament. Princeton: Princeton University Press, 1969, pp. 278-279.
- Babylonian and Assyrian Historical Texts, pp. 280-281. (32)
- Miller, J. M. and Hayes, J. H.: **A History of Ancient Israel and Judah,** Philadelphia: Westminster (33)
  Press, 1986, p.299.
- A History of Ancient Israel and Judah, pp.284-285. (34)
- The Israelites in History and Tradition, p.53. (35)
- A History of Ancient Israel and Judah, p.282. (36)
- Biran, Avraham.: Biblical Dan. Jerusalem: Israel Exploration Society, 1994. (37)
- Biran, A. and Naveh, J.: "An Aramaic Stele Fragment from Tel Dan", **Israel Exploration Journal** (38)
  43, 1993, pp.81-98; Biran, A. and Naveh, J.: "The Tel Dan Inscription: A New Fragment", **Israel Exploration Journal** 45, 1995, pp.1-18.
- The Israelites in History and Tradition, p.39. (39)
- The Israelites in History and Tradition, p.41, 181. (40)

(41) طوقان، فواز أحمد: "مسلة مشيع ملك مؤآب"، **حولية دائرة الآثار العامة الأردنية**، العدد 15، 1971، ص19–51.

- Rogerson, J. and Davies, P. R.: Was the Siloam Tunnel Built by Hezekiah? **The Biblical** (42)
  Archaeologist 69, 1996, pp.138-149.
- Donner, H. and Röllig, W.: **Kanaanäische und aramäische Inschriften, I-III. 3rd edition,** (43)
  Wiesbaden, 1962, p.64.
- The Israelites in History and Tradition, p.47. (44)

المراجع بالحروف اللاتينية

References in Roman Scripts

(1) Attawrāh: Kitāb alʿAhd al-Qadīm.

(2) Ibrāhīm, Muʿāwiyah 2009; Dirāsāt fī Āṯar Filisṭīn. ʿAmmān: Ǧamiʿat Filādelfiyā.

(3) Abū Ṭāleb, Maḥmūd 2006; min as-Salṭ ʾilā Alquds, Abḥāṯ fī Tārīḫ Alʾ Urdun wa Filisṭīn Alqadīm. Tarğamat wa Taḥrīr ʿumar Alġūl wa ʿAfāf Ziyādeh. ʿAmmān: Al-Muqtabas.

(4) Al- Ḥadīdī, ʿAdnān 1977-1978; Al- ʾĀṯār fīḫidmat Alsīyāsah. Ḥawliyyāt

(5) Dȧirat al- Alʾāṯār Al- ʿĀmmah Al-ʾUrduniyyah 22: 6-11.

(6) ʿAbdeltawwāb, Ramaḍān (Mutarğim) 1977; Fiqh Al-luġāt Al-Sā miyyeh. Karl Brokelmann. Al-Riyāḍ: Ğamiʿat Al-Riyāḍ.

(7) Ṭūqān, Fawwāz ʾAḥmad 1970; Masalat MayŠaʿ Malik Muʾāb. Ḥawliyyet Dȧirat al- Alʾāṯar Al-ʿĀmah Al-ʾUrdineyyah 15: 19-51.

(8) Kafāfī, Zeidān 2004; Al-Madḫal ʾilā ʿilm Al-ʾĀṯār. Irbid: Muʾassast Ḥamādah Lildirāsāt Alğamiʿyyah WalnaŠer Waltawzīʿ.

(9) Kafāfī, Zeidān 2011; Bilād a Š-Šām fī Al-ʿUṣūr Alqadīmah: min ʿUsūr mā qabla attāriḫ Ḥattā Al-ʾIskandar Al-Maqdūnī. ʿAmmān" Dār aŠ-Šurūq.

(10) Kafāfī, Zeidān 2014; ʿUlāqāt Miṣr Altiğariyyah maʿ ğanūbī Bilād a Š-Šām Ḫilāl al-ʾAlf Al-Rābiʿ wa Al-Niṣf Al-ʾAwwal min al-Ṯāliṯ qabl Al-Mīlād. Al-Ṣafḥāt 106-128 fi ʾAʿmāl al-Muʾtamar ad-Dawalī Al-ʾAwal " Miṣr wa Duwal Al-Baḥr Al-Mutawassiṭ ʿabra ʾAl-ʿUṣūr 15- 18 October 2014, Kulliyyat Al-ʾāṯār: ğāmiʿat Al-qāhirah.